# أثر البيئة العلمية والثقافية والعمرانية على المجتمع الجزائري
# ما بين القرنين 18م ـ 19م

**د . عبد القادر مولاي***

## مقدمـة:

في أواخـر القـرن 18م وبدايـة القـرن 19م ، إرتبطـت الحالـة الإجتماعيـة في الجزائر بنشاط المرجعية ـ **الطرق** ـ الدينية التي أثرت بطريقة مباشرة في توجهـات العامة وفي حياتهم الثقافية. إذ عملت علـى تعميـق أواصـر الإنتمـاء الإسـلامي بـين قبائل الريف الجزائري عن طريق الحرص علـى العبـادات وتـلاوة الأوراد والسـعي كحضور حلقات الذكر وما يتبعها من إنشاد جماعي[1]. وتمكنت هذه الطـرق مـن سد الفراغ الثقـافي والروحـي والسياسـي السـائد في الريـف نتيجـة إرتبـاط الفقهـاء بالمدن ، فكانت بمثابة المرشـد الموجـه علـى حفـظ مصـالح ومشـاغل المجتمـع ، والعمل على توجيه السكان لمقاومة كل مـاهو أجـنبي ، وإعتبـاره جهـادا مفروضـا عليهم ، وواجبا دينيا يقومون به الأمر الذي تنبهت إليه الإدارة الفرنسية.

ووصف أحد ملاحظيهـا بقولـه: « ...إن صـيحة جهـاد واحـدة تكفـي لجمـع السكان حول المرابطين والتوجه بهم لمواجهة العدو... »[2].

فالمرجعيـة الدينيـة في الجزائـر آنـذاك كانـت في أدوارهـا ونشـاطاتها مثـل الجمعيات والأحزاب السياسية حاليا. وبإعتبار تمايز الطـرق الدينيـة في الجزائـر[3] بكثرتها وتعدد شيوخها وتباين أساليبها ، ويمكن رصد أهم هذه المرجعيـات الـتي تتميز بموقفها من الوجود العثماني والفرنسي على حد سواء.

### 1) المرجعية القادرية:

تنسب الطريقة القادرية إلى سيدي عبد القادر الكيلاني دفين بغـداد ، المتـوفي عام 561 هـ 1166م والملقب بسلطان الأولياء ، وتفرعت عنها عدة طرق نـذكر منهـا:

* كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر 02.

(1) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1998م.

(2) Archives nationales, d'outre mer à Aix-en-provence, f 80-1674, Administration des biens arabes, blida, 1842, p 16.

(3) ناصر الدين سعيدوني: مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية ، نمـوذج بـلاد القبائـل بحـث قـدم في المـؤتمر العالمي للتعليم والتربية في العالم العثماني ، إستانبول في12 و15 أفريل 1999م ص 10. 18.

الطريقة «العيساوية» المنتسبة إلى سيدي محمد بن عيسى المكناسي.

الطريقة «العمارية» التي دعا إليها سيدي عمار بوسنة.

أما الطريقة القادرية [1] أصلا فقد نسب إليها خلال القرن 19م ما يقارب ثلاثين زاوية أهمها زاوية القيطنة على وادي الحمام أسسها الحاج مصطفى بن المختار الغريسي جد الأمير عبد القادر المتوفي عام 1200هـ 1784م ، ثم تولى أمرها والد الأمير عبد القادر الشيخ **محي الدين وبعده إبنه الأكبر الشيخ محمد العيد (أخو** الأمير الأكبر) المهاجر إلى المشرق بعد إنتهاء مقاومة الأمير عبد القار ضد الوجود الفرنسي بالجزائر.

وبعد ضغط وتسلط حكام البايليك على الريف الوهراني غير شيوخ الطريقة القادرية موقفهم المتمثل في الحذر من سلطة وبطش باي وهران إلى فرض التحدي والعصيان والوقوف موقف النذ تحت راية شيخ الطريقة التجانية الذي إستقر «بغريس» بطلب من قبيلة هاشم لمساعدته والوقوف بجانبه لمهاجمة معسكر ، لكن نتائج الحرب جاءت مغايرة ، فقد قتل شيخ التجانية وأتباعه في معركة «عواجة» سنة 1820م من طرف قوات باي وهران ، الذي فرض على أتباع القادرية ضريبة أثقلت كاهلهم [2] بسبب وقوفهم مع التجانيين.

### 2) المرجعية الطيبية.

تنتسب إلى الشيخ «مولاي الطيب الشريف» من «وزان» بالمغرب الأقصى والمتوفي في عام 1679م ، وإنتشرت في سهول **وهران** ، ومنطقة **طرارة** الجبلية وحصل شيوخها على تأييد ومناصرة قبائل المخزن [3] (الدوائر والزمالة).

### 3) المرجعية الدرقاوية.

تنتسب الطريقة الدرقاوية إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي ، المتوفي سنة

---

(1) انتشرت في منطقة التل الوهراني أين كانت تقيم بعض القبائل العربية المفتخرة بأصولها والضاربة بشدة بأس رجالها وفرسانها وهو ما جعل أكثرية المنتمين إليها أصحاب ميول إرستقراطية.

أنظر: M.emerit, l'Algerie à l' époque d'abdelkader, collection de d'ocuments inédits, paris, larose, 1951, pp. 201. 202.

(2)قدرت الضريبة بخمسين ألف ريال بوجو ، الأمر الذي دفع بسيدي علي بن أبي طالب ، عم الأمير إلى عملية التستر. في حين أخوه الشيخ محي الدين إلتزم زاويته بالقيطنة قبل أن يلقى عليه القبض بمعية إبنه الأمير عبد القادر عندما كانا في طريقهما إلى البقاع المقدسة ، وبتدخل «أعيان المخزن أفرج عنهما.

(3) هذا ما يفسر ويوضح فيما بعد موقف قبائل المخزن المعادي للأمير منذ تأسيس دولته الحديثة وأنظر:

De neveu, ordres relegieux chez les musulmans d'Algerie, 3 ed, Alger, 1913.p 18.

1823م [1] وكان لها أنصار وأتباع في الناحيتين الوسطى والغربية من الوطن بإقليم التيطري ، وناحية وهران وفي مستهل القرن 19م ، كان لدعاتها الدور البارز والفعال في الأحداث والقضايا التي حدثت في الجزائر حيث إستطاع « إبن الأحرش » في الشمال القسنطيني و« عبد القادر الشريف » بناحية وهران تأليب وإثارة عامة السكان ضد تعسف الإدارة والسلطة المركزية.

### 4) المرجعية الرحمانية.

وقد أسسها سيدي محمد بن عبد الرحمان القشتولي من آيت إسماعيل بجرجرة[2] وإنتشرت هذه الطريقة في جهات الوسط والشرق الجزائري وإمتدت إلى شمال شرق الصحراء [3] وتمكن شيوخها من نشر دعوتهم وكسب أتباع ومناصرين أصبحوا بعد ذلك قوة روحية.

وكان لهذه الطريقة الأثر البارز في تصديها للإستعمار الفرنسي في فترة محاولة توسعه بمنطقة القبائل عام 1853م من جهة وأثناء قيام ثورة المقراني عام 1871م. وغيرهما من سنوات الإنتفاضة الشعبية الجزائرية ضد السلطة الفرنسية المستبدة.

### 5) المرجعية التجانية.

أنشأ الطريقة التجانية « سيدي أحمد بن مختار بن سالم التجاني » في عين ماضي متأثرا بالشاذلية متخذا الطابع الحضري لتركيزها في قصور الصحراء ، الأمر الذي سمح لها بالتوسع والإنتشار عن طريق المبادلات التجارية في بلاد السودان وواحات الصحراء ذلك لحذر الطريقة القادرية منها وعداوة المرجعية الدرقاوية لها من جهة ثانية ومواجهة باي وهران لقاداتها وشيوخها بعد محاولتهم الإستقرار في التل الوهراني.

من جهة أخرى لم تتمكن من التوغل والتوسع ناحية الشمال ولهذه المعطيات وغيرها أضطر مؤسسها « سيدي التجاني » إلى نقل طريقته إلى مدينة « فاس » عام 1798م ، [4] على أمل العودة إلى الجزائر.

---

(1) تتميز بالدعوة لجمع كلمة المسلمين على مبادئ في التصوف وإبتعادهم عن مغريات الحياة وحثهم على تجنب أصحاب السلطة وتربيتهم على طاعة شيوخهم ، وبث الحماس لمواجهة الخصوم.

(2) أخذ الطريقة الخلواتية بمصر قبل أن يتميز بطريقة خاصة وهي الرحمانية.

(3) تتميز بنفوذ أوسع بمنطقة القبائل ، حيث أرغم حكام الجزائر بالعمل على تجنب المواجهة معها والسعي إلى جعلها همزة وصل بين السكان وسلطة البايليك.

(4) حظي سيدي التجاني مؤسس الطريقة التجانية برعاية خاصة من طرف « مولاي سليمان » سلطان المغرب

وبعد وفاة شيخ الطريقة سيدي التجاني بفاس سنة 1815م عاد نشاط المرجعية من جديد إلى عين ماضي بالجزائر برئاسة خليفة الشيخ المتوفي محمد التجاني وبهذه العودة إنتشرت إنتشارا واسعا مما جعل حكام الجزائر يتصددون لها ، وكان هذا واضحا عند مهاجمة «باي التيطري» و«باي وهران» مركز المرجعية بعين ماضي.

وبالرغم من مساعدة ومناصرة «قبيلة هاشم» للطريقة بمهاجمة منطقة معسكر كانت نهايتها بيد باي وهران «حسن بن موسى» الذي تمكن من القضاء على شيخها «محمد التجاني» والعديد من أتباعه ومريديه ومناصريه.

## تمرد وعصيان سكان الريف ضد حكم البايليك.

زاد نفوذ موظفي البايليك وسيطرتهم بتطبيق إجراءات تعسفية وجبائية على سكان الريف الذين كانوا يعانون منها زيادة على الحياة الصعبة التي يعيشونها لذلك إضطروا إلى القيام بحركة تمرد وعصيان خلال الربع الأول من القرن 19م (1792م ـ 1830م) وإعتبروا تلك الإجراءات وغيرها من القرارات والمراسيم مظالم مجحفة في حقهم وحاولت سلطات الباي شن حملات عسكرية متعددة لإخضاع سكان الريف للأمر الواقع. وقامت فرق «المحلات» اليولداش في الريف بجمع الضرائب وقمع الإنتفاضات وحركة العصيان[1]. التي تشجعت وزادت من حدتها مؤازرة ومناصرة شيوخ الزوايا ورؤساء القبائل ومعاداتها لحكام البايليك بالإضافة إلى الموقف المشرف للكثير من المرجعيات الدينية التي عارضت بشدة تلك الإجراءات الإستثنائية المطبقة من طرف السلطات الحاكمة على سكان الريف وفي مقدمة هذه الطرق الدينية الطريقة الدرقاوية والتجانية[2].

وإنتشرت حركات التمرد والعصيان بجبال جرجرة وحوض الصومام التي قامت بها قبائل «فليسة» وآلت إلى تهديد سهل «متيجة» المحاذي لمدينة **الجزائر العاصمة** في السنوات المتتالية (1767م ، 1769م ، 1773م ، 1800م ، 1807م ، 1810م ، 1820م) ، وقابلتها من ناحية التصدي والمثابرة إنتفاضة قبائل الأطلس البليدي كقبائل «بني صالح عام 1805م» و«بني جعاد سنة 1824م». وواجهت قوات البايليك كرد فعل عدائي من طرف سكان **الريف** والعشائر **البدوية** والجماعات

---

الأقصى.

(1) تركزت حركات العصيان في المناطق الجبلية والأقاليم السهبية.

(2) مسلم بن عبد القادر الوهراني: خاتمة أنيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بونار ، الجزائر. ش.و.ن.ت. 1974م ، ص.ص 73. 107.

الجبلية المعروفة بصعوبة المراس والشدة في البأس بالناحية الشرقية [1]. والتي شهدت أخطر تمرد وتحرك قام به« شريف بن الأحراش الدرقاوي » عامي 1803م و 1804م حيث إستطاع التقدم نحو قسنطينة وألحق هزيمة نكراء بقوات الباي « عثمان » الذي لقي مصرعه في موقع« خناق عليهم » بنواحي مدينة الميلية سنة 1803م .

أما في الناحية الغربية فقد أعلنت قبائل الأنقاد حركتها في التمرد والعصيان ملحقة الهزيمة بفرسان البايليك ، مما أجبر الباي « مصطفى المنصالي » إلى تجهيز حملة عسكرية تمكن بفضلها إخضاع القبائل المعادية عام 1803م وإلى جانب قبائل« الأنقاد » نجد أتباع الطريقة « التجانية » بعين ماضي الذين أشهروا العداء والعصيان في وجه سلطة البايليك جراء الإجراءات والمضايقات التي تعرضوا لها من حين لآخر ، لكن حركتهم تعرضت للقمع والقضاء عليها من طرف الباي« محمد الكبير » وإبنه« الباي عثمان » 1791م و1798م.

وبعد هذه الفترة من الزمن تجذرت وتعمقت روح التمرد والعصيان من جديد في فترة حكم الداي« مصطفى باشا » سنة 1798م - 1805م[2]. الذي كان بإمكانه إنتهاز فرصة التوتر الذي ساد أوضاع أوربا قبل معاهدة « إميان » بين كل من فرنسا وبريطانيا عام 1800م وفي هذا الوقت عرفت البحرية الجزائرية نشاطا كبيرا في البحر المتوسط ، ونتج عن ذلك إستسلام الداي« مصطفى باشا » لإملاءات وشروط المحتكرين اليهود جراء عجز وإفلاس مالي عانت منه الخزينة الجزائرية منذ إحتكار شركة « بكري وبوشناق » اليهوديين تجارة الوطن الجزائري وتوليها مهمة تصدير الحبوب الزراعية ـ القمح ـ من موانئ البلاد نحو البلدان الأوربية وإلى فرنسا على وجه التحديد وهو ما تسبب عنه عداوة السكان ونقمة وتذمر الجيش الإنكشاري مما أدى إلى إغتيال الداي« مصطفى باشا » والذي تزامن مع حدوث إنتفاضة شعبية جزائرية ضد اليهود محتكري الحبوب الجزائرية عام 1805م .

ومع زيادة الإضطرابات وسوء الأوضاع في الجزائر بعد رحيل الداي إستمرت إغتيالات الدايات[3]. الأمر الذي دفع بالداي « علي خوجة » إلى القيام

(1) اضطر بايات البايليك إلى جمع قوتهم توحيد صفوفهم والإستعانة بقبائل المخزن مثلما حدث في تمرد قبائل الأوراس سنة 1797م ، والنمامشة 1803م ، والحنانشة 1805م ، ووادي سوف 1826م ، وفي الهضاب العليا عن طريق « أولاد عبد النور وعامر ورفعة سنتي (1811م و1813م).

(2) ترع شؤون البلاد والرعية لمساعديه ومقربيه ، وتفرغ لأموره الخاصة كالإعتناء بأملاكه الشخصية.

(3) من الدايات الذين شملتهم عملية الإغتيالات نذكر: الداي « أحمد باشا » سنة 1808م ، و« علي الغسال » سنة 1809م ، و« علي باشا » سنة 1809م ، و« محمد باشا » سنة 1814م و« عمر أغا » سنة 1817م.

بإصلاحات وإزالة الفوضى والفساد السياسي والإحتماعي ، فبدأ بالقضاء على نفوذ الحامية التركية وقمع تمرد الإنكشارية وحول مقر الحكم من قصور «الجنينة» إلى حصون القصبة مستعينا بالعناصر الأهلية

من (زواوة وحضر وكراغلة) ونظرا لقصر فترة حكمه وإصابته بمرض الطاعون بعد نصف سنة عام 1818م ، توقفت إصلاحاته التي عجز خليفته الداي «حسين باشا» 1818م ـ 1830م لإنشغاله بقمع الإنتفاضات وبسط السلام والأمن بأقاليم الدولة وهو ما ضاعف نفوذ الولاة [1]. المقربين منه بصورة خاصة الذين حققوا نجاحات في تهدئة الأوضاع وقمع حركات التمرد والعصيان.

وبالرغم من هذه الإنتصارات عبر أطراف الدولة ، فإن فترة الداي حسين شهدت جمودا إداريا وإنزواء الأقلية التركية وضعف القوة العسكرية في الحماية وإستتباب الأمن والإستقرار وعداء المرجعيات الدينية وإبتعاد السكان عن الوقوف بجانب سلطة البايليك فزاد تدهور الأوضاع أكثر ، ولم يتمكن الداي حسين باشا من إدخال تنظيمات وأطر جذرية على الجهاز الإداري والسياسي والإقتصادي للبلاد فقد أجبرته مجابهة الفتن الداخلية وإزالة حركات العصيان على التوقف عن الإصلاح.

وتمكن من إخضاع الأقاليم الشرقية سنة 1826 م ، وبسط الأمن والإستقرار في الجهات الغربية عام 1828م ، وفي المقابل وقف عاجزا أمام التكالب والتحرشات الأوربية تجاه الجزائر ، وكذا الإحتكارات التجارية اليهودية قبل مواجهته للحصار البحري الفرنسي على السواحل الجزائرية والذي إمتد من سنة 1827م إلى غاية 1830م[2]. ونظرا لإضطراب الأوضاع الداخلية [3]. مع بداية القرن 19م ، وتحكم الوكلاء الأجانب واليهود شركة (بكري وبوشناق) في التجارة الخارجية للوطن ، وخضوع المواد الأولية[4]. لإحتكار الجهاز الإداري للبايليك ، وإنتشار ورواج المصنوعات الأوربية ، في أسواق المدن وإنحطاط وتقهقر مستوى

(1) من الولاة الذين عملوا في تهدئة الأوضاع بالأقاليم نذكر: قائد الجند «الآغا يحيى» 1819م ـ 1826م ، وباي قسنطينة «الحاج محمد» 1826م ـ 1837م ، وباي وهران «حسن بن موسى» 1817م ـ 1831م ، وباي التيطري «مصطفى بومرزاق» 1819م ـ 1830م.

(2) ناصر الدين سعيدوني: الداي حسين باشا ، ضمن معجم مشاهير المغاربة ، ص ص. 156 ـ 162.

(3) وصف أحد الكتاب الفرنسيين وضع الجزائر كالتالي: (...أنه في حوالي سنة 1791م دفعت الفتن التي تسببت فيها مظالم الداي والبايات والموظفين المحليين الآخرين ، عددا كبيرا من السكان إلى البحث عن ملجأ آمن لهم في الجبال الصعبة المسالك ، حيث تندر وسائل العيش ، وقد كان هؤلاء السكان يضطرون في بعض الأحوال إلى حمل التراب وتهيئته لزراعة ما كانوا في حاجة إليه لسد رمقهم ، وقد كانت محاصيل الجزائر قبل ذلك تفي بحاجة اسكان ويصدر قسم منها إلى الخارج).

(4) من حبوب زراعية ، وجلود وصوف وشمع وغيره.

الصنائع التقليدية[1]. وعدم ملاءمة إجراءات النظام الجبائي مع إشتداد حدة فقر السكان كما لم تعد فئة الأتراك (الداي وديوانة وحاشيته) وأهل الحضر وفرسان المخزن مستعدة للتنازل عن بعض إمتيازاتهم ومكاسبهم.

نتيجة لهذه الظروف المتأزمة إجتماعيا وإقتصاديا أصبحت المدن والريف الجزائري تمثل بيئات منكمشة ومنغلقة على نفسها عديمة الإتصال والتفاعل مع السكان وغير قادرة على التعامل مع السلطة المركزية.

لكل ما سبق ذكره فقد أصبحت الفرصة سانحة والظروف مهيأة في بلاد الجزائر لوقوعها ضحية التكالب والتنافس الأوربي عليها وفريسة لعدوان أجنبي دخيل تمثل في الغزو الفرنسي ثم إحتلالها بعد مقاومات شعبية باسلة هي الأخرى عاصرت ظروفا وأوضاعا عبر مراحلها مما كان له الأثر الكبير في علاقة الجزائر مع العالم الأوربي.

وقد شكل الداي والوجهاء الأتراك في مجموعهم مايسمى بالبايليك نسبة إلى الباي ولم يكن الداي يتقاضى سوى راتب ضابط في الجيش ، لكنه كان في الواقع يثري نفسه من الهدايا التي يقدمها له الموظفون إبان تقلدهم لمناصبهم ، وكذا من عطايا القناصل والملوك الأجانب ، وتوليه شخصيا تسيير شؤون بعض المؤسسات التجارية ، وتقاضيه غنائم الفتح وإحتكار النشاطات الصناعية[2] الرئيسة في البلاد .

وتولي عملية تصدير الحبوب ، والجلود ، والشمع ، والصوف لم تكن تستخدم لصالح الرعية وإنما كانت تتراكم داخل خزينة الداي ويصرف جزء منها لدفع رواتب الإنكشارية وجزء آخر يصرف للمؤسسات الدينية[3].

وبإعتبار الداي أعلى سلطة في البلاد ، فقد كان البايات يقدمون له الضريبة الخاصة بأقاليمهم والفلاحون يأخذون من محاصيلهم مايكفي حاجتهم الأساسية وما يزيد عنها يصدر ويقدم إلى البايليك على شكل ضرائب ومبيعات قهرية وبأسعار زهيدة وكذلك الشأن لأرباب الصنائع الذين يوضعون تحت متابعة ومراقبة رؤساء الجمعيات المعينة من طرف الداي شخصيا والبايليك هو الزبون

(1) النسيج ومعالجة الجلود ، والحدادة والأدوات الخزفية والطينية ، والمجوهرات.

(2) النشاطات الصناعية الأساسية مثل مخازن الأسلحة ، وورش الملاحة ، ومعامل صهر المدافع بدار النحاس قرب « باب الوادي » بالعاصمة.

(3)قام الداي « عثمان » ببناء مسجد الجامع الصغير بالعاصمة خلال القرن 18م الذي تم تهديمه أثناء إحدى الفتن ثم أعيد تشييده في القرن 19م ، كما تم بناء جامع « كتشاوة » من طرف « بابا حسن » سنة 1794م.

الوحيد لهم فكانوا يجازفون بمنتجاتهم إذا ما فكروا في مناهضته وعصيانه[1].

وبالرغم من هذه السياسة المتبعة والمطبقة من طرف الداي وديوانه على السكان فلم تكن حكومة الجزائر أكثر إقتصادا للأموال العامة وإلا كانت هذه الأموال تنفق لصالح المرافق العامة في الجزائر وما ساعدت الإدارة المحلية المتمثلة في سلطة الداي والبايات بالأقاليم على نمو الفلاحة والصنائع وتطورها وإزدهارها.

وكتب أحد الكتاب الفرنسيين فنتور دي باردي قائلا: ...لم توجد أية دولة أكثر إقتصادا للأموال العامة مما كانت عليه حكومة الجزائر العاصمة ، فقد كانت شؤون خزانة الدولة تدبر على نحو من الدقة الفائقة ، فلا يخرج من الخزينة للنفقات العادية سوى المبالغ المحددة والمقررة إعتياديا وهي التي في أشد المناسبات إلحاحا ، وبالرغم من ثراء الخزانة كان كل شيء يتم بمقتضى الأعمال والأشغال الشاقة.

فأثناء حرب «الدانوا» عام 1770م التي تم فيها قذف الجزائر العاصمة بمدافع أسطول الدانوا المغيرين ، وبعدها عملية الغارات المتعددة التي شنها «الإسبانيون» عام 1775م دون أن يحققوا من ورائها أي نتائج قررت زيادة التحصينات البحرية كحي «المرسى والمرفأ» فأرغم السكان على العمل والإنتقال للبحث عن الصخور من مقالع الحجارة الذي تم فتحه من ناحية «باب الوادي» وظلت أموال الخزينة في مأمنها ولم يستخدم منها شيء في أي وجه من وجوه الإنفاق الجديدة»[2].

## 1) الحركة العمرانية.

إبتدأت الحركة العمرانية في الجزائر بتاريخ تأسيس المدينة على يد «بلكين بن زيري» عام 339هـ غير أن آثار هذا العهد والعهد الحمادي لم يبقا منهما إلا الجامع الكبير الذي يعود تاريخ تأسيسه إلى سنة 1097م وجامع «سيدي رمضان» وكلاهما يمثل الفن المعماري المتسم بالإبداع الفني ، وفي العهد العثماني إكتسبت مدينة الجزائر حلة معمارية متمثلة بمساجدها ومآذنها العالية وحصونها المنيعة وقصورها الفخمة.

وفي هذا المجال فإن ما يلفت إنتباه المسافر عندما يحل بأرض الجزائر هو الوجود التركي الذي يتجلى فيما تركوه من آثار معمارية هامة ، فالفن المعماري

(1) كان يقوم بشل نشاط زراعة الأشجار المزدهرة ويسيطر على مناطقها _القبائل_ حيث كان يتعذر عليهم تصريف فوائضهم في غير أسواق المدن التي كانت مراقبة هي الأخرى من طرف الوجاق.

2- Venture, de paradis, Alger au 18 siecle. Op.cit.

للجزائر في عهد الأتراك يمتاز بالنقش والزخرفة ، وضروب الإبداع الفني وتمثل (الزوايا والمساجد والمعابد)[1]. جزءا كبيرا من هذا الفن المعماري.

ويظهر هذا الفن المعماري في المساجد الباقية كما هو واضح في الجامع الجديد الذي بني سنة (1070هـ 1660م) الذي يمتاز بمنارته البالغ إرتفاعها 29.5م ، وبالزخرفة البديعة التي تعلوها ويمتاز أيضا بمحرابه المزخرف بضروب النقش الجميل ، وكذا منبره البديع في الأناقة والجمال ثم مسجد « كتشاوة » الذي أسس عام (1209هـ 1794م) والذي يشتمل على آيات الفن المعماري وجامع « علي بتشيني » الذي أسس حوالي عام (1031هـ1622م) ويشتمل على شواهد الفن المعماري الرائع وصحنه المربع الكبير وهو يمثل روعة فنية خلابة وزاده جمالا « قبيه » المثمنة الأضلاع والمرتكزة على دعائم وما تشتمل عليه من آيات الفن المعماري[2].

## 2) الحياة العلمية والثقافية في الجزائر حتى العهد العثماني.

كانت حياة مدينة الجزائر العلمية والثقافية منذ تأسيسها على يد « بلكين بن زيري » هي حياة خصبة متعددة الجوانب والمظاهر ومتنوعة الموضوعات ، وقد نبغ عبر مختلف عصورها أعلام في الفقه والآداب والدراسات الدينية والتصوف والطب ، على أن جل ما نبغ فيها كان من الفقهاء والمتصوفة ، والأدباء والكتاب والشعراء .

كانت مراكز التعليم هي المساجد والزوايا التي تؤدي دورا تعليميا وتعبديا وإلى جانبهما نجد الكتاب القرآنية وهي عبارة عن مدرسة إبتدائية يتعلم فيها التلاميذ القراءة والكتابة ويحفظون القرآن الكريم وقراءاته المروية .

### أ) علماء الجزائر قبل العصر العثماني.

من الذين إشتهروا فيها في القرنين 6 و7 الهجري:

**. أبو محمد بن أحمد بن فرج الجزائري.**

كرواية للحديث المتوفي سنة 368هـ [3].

(1) لقد بلغ عددها حوالي 98 مسجدا وزاوية ، ويذكر « هايدي » أنه كان بالجزائر عقب الإحتلال الفرنسي 13 مسجدا كبيرا و109 مسجدا صغيرا ، و32 معبدا و12 زاوية. وقد إندثر جل هذه المساجد والزوايا بعد مدة من الوجود الفرنسي بالجزائر تحت ستار توسيع الطرقات وتنظيمها.

(2) ياقوت. معجم البلدان ، مج2. ص ص 50. 132.

(3) ياقوت ، م.س. ص131.

**. عبد الرحمن بن السطاح.**

الذي كان أديبا فقيها وتوفي ببجاية عام 629هـ [1].

**. عبد الله بن حجاج بن يوسف الجزائري.**

كان نحويا فقيها روي عن **الجزولي** وتوفي ببجاية عام 640 **هـ** [2].

**. أبو محمد عبد المنعم الجزائري.**

الذي أخذ عن إبن منداس الجزائري ، وإشتهر بالشعر والترسل الديواني ، توفي سنة 680هـ [3].

**. أبو عبد الله محمد بن العطار الجزائري.**

شاعر **المدائح النبوية**[4] ، ومن شعره:

أهدت لنا طيب الروائح يثرب فهبوا بها عند النسيم يطرب

رقت فرق من الصبابة والأمى قلب بنيران العباد يعزب

شوق إلى أسنى بني حبه كنز النجاة فنعم هذا المطلب

**. محمد بن منداس.**

وكان أديبا لغويا ومحدثا ، توفي عام 634 هـ.

**. محمد بن أحمد الأريسي الجزائري.**

وكان كاتبا بارعا وشاعرا ومن شعره نذكر:

أدرها فقد هبت نسيمة دارين لقد جزعت نفسي لفقد أحبتي

ونم بسر الروض نشر الرياحين وحق لها من مثل ذلك تجزع

لعلك بعد الهجر تسمح يا بدر يوصل فقد أودى بمهجتي الهجر[5].

ومن الذين نبغوا وإشتهروا في القرن **الثامن الهجري**:

**. محمد بن حسن اليحصبي البروني.**

حاز على رئاسة **الفقه** في القرن **الثامن الهجري** بمدينة الجزائر وإنتقل إلى **تلمسان** بدعوة من «**أبي حمو الثاني**» وتوفي في تلمسان في أواخر القرن 8 هـ.

ونبغ في القرن **التاسع الهجري** أعلام في الفقه ، والتصوف والكلام أشهرهم:

---

(1) الحفناوي: تعريف الخلف ، ج2 ، ص198.

(2) نفسه: عنوان الدراية في 1450م ، ص 198.

(3) نفسه: ص247.

(4) المقري: النفح الطيب ، ج10. ص 327.

(5) الحفناوي: عنوان الدراية ، م.س. ص ص 202. 211.

**. عبد الرحمن الثعالبي:**

وشيخه **أبو جمعة** صاحب المؤلفات الكثيرة منها الجليلة في **التفسير والوعظ والفقه ، والتراجم ، والتصوف** ، ولد سنة 785هـ وتوفي عام 875هـ[1].

**. أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري.**

كان فقيها متكلما وأديبا شاعرا ، إشتهر بتلاميته في التوحيد ، توفي عام 884هـ وكان صديقا **للثعالبي** وقد رثاه بعد وفاته بقصيدة مطلعها:

لقد جزعت نفسي لفقد أحبتي وحق لها من مثل ذلك تجزع[2] .

## ب) علماء الجزائر في العصر العثماني.

نبغ في هذا العصر الكثير من العلماء والأدباء في قرونه الثلاثة ، وأشهرهم:

**. سيدي محمد الشريف الزهار.**

وكان تلميذا لسيدي **أحمد بن يوسف المليانى** ، الصوفي الكبير دفين الجزائر المتوفي عام 948هـ[3].

**. الشيخ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي.**

نزيل الجزائر ودفينها ، وكان محدثا وفقيها وصوفيا له كتب في التصوف تولى السفارة عن **باشا الجزائر** إلى المغرب ، توفي عام 963هـ.

**. الشيخ أبو الحسن على بن الله الأنصاري السلجماسي.**

الذي إستقر بمدينة الجزائر العاصمة وتولى التدريس بمساجدها ، وتخرج على يده طلبة كثيرون ، منهم « **سعيد قدورة** » الذي ترك مؤلفات متعددة وتوفي عام 1057هـ.

**. أبو عثمان سعيد قدورة.**

الذي أخذ عن شيوخ الجزائر وتلمسان وتولى الفتوى والتدريس **بالجامع الأعظم** وتوفي عام 1066هـ ، ودفن بزاوية الشيخ **أحمد بن عبد الله الجزائري** الصوفي ، له شرح على متن **السلم الأخضري** وشرح على **عقيدة السنوسي**[4].

**. أبو مهدي عيسى الثعالبي الجزائري.**

ترجم له **المجي** وأثنى عليه كثيرا ، **والشيخ البايلي** قال فيه: ما وصل إلينا

(1) نفسه: تعريف الخلف ، ج1. ص 63.
(2) نفسه: تعريف الخلف ، ج2. ص 469.
(3) الحفناوي: تعرق الخلف ، م.س ، ص 483.
(4) نفسه: ص 282.

من المغرب أحفظ من المقري ، توفي عام 1080هـ[1].

**. يحيى الشاوي.**

وهو علامة نشأ بالجزائر ، وأخذ بها عن **سعيد قدورة وعبد الواحد الأنصاري السجلماسي ومحمد بن محمد بهلول الزواوي السعدي** وأجازه شيوخه وإرتحل إلى مصر عام 1074 **هـ** وإستجاز علمائها وأجازوه وظهر عليهم بحفظه له مؤلفات في بيان ما **للبخاري** من التصحيح ، وحواش على التسهيل والألفية **لإبن مالك** ، وتوفي على ظهر البحر عام 1096هـ ونقل إلى مصر ودفن بها[2].

**. الشيخ محمد بن عبد المؤمن.**

وكان فقيها قاضيا **للمالكية** توفي بالجزائر عام 1101هـ.

**. أبو عبد الله بن الشيخ سعيد قدورة.**

وكان عالما فقيها تولى الإفتاء **بالجامع الأعظم** توفي سنة 1104هـ.

**. الشيخ عبد الرزاق بن حميدوش الجزائري.**

اشتهر بكتابه الطبي « **كشف الرموز والأعشاب** » ، عاش في القرن 12هـ.

**. عمر بن محمد المانجلاتي.**

وكان فقيها أصوليا أخذ عنه إبن زاكور وأثنى عليه كثيرا وختم عليه جمع الجوامع سنة 1044هـ[3].

**. محمد بن سيدي إبن علي.**

الأديب والشاعر المفتي وكان شاعرا كبيرا وإماما فقيها وكان صديقا **لإبن عمار** الذي روى له كثيرا من شعره وساجله في كثير من قصائده[4].

**. أحمد بن عمار الجزائري.**

العالم الأديب الرحالة وكان من نوابغ عصره رحل إلى المشرق في أوائل عام 1166هـ إشتهر برحلته التي بقي منها نبذة قليلةّ ، توفي في آخر القرن (12هـ)[5].

**. على بن محمد الجزائري.**

ويعرف **بإبن الترجمان** إنتقل إلى المشرق وجال في أنحائه ثم إستقر

---

(1) الكتاني: فهرس الفهارس والإثبات ، ج2. ص 190.
(2) نفسه: ص446.
(3) نفسه: ص447.
(4) نفسه: ص 449.
(5) سابق: تعريف الخلف ، ج2. ص 215.

بالآستانة وشارك مع **الجيش العثماني** توفي **بروسيا** [1].

**. أحمد الغزال الجزائري.**

كان تلميذا للعالم الأديب « **أحمد بن عمار** » مدح شيخه بقصيدة مطلعها:

فأكرم به من ماجد وابن ماجد وأنعم به من سيد وابن سيد

له خضعت أرباب علم لعزه فكيف وفيهم قام أعظم مرشد

وأجابه تلميذه « **إبن الشاهد** » بقوله:

عسى أن يلم الشمل بعد تبدد عشية هذا اليوم أو ضحوة الغد[2]

**. محمد بن الشاهد الجزائري.**

كان أديبا وشاعرا ترك قصائد كثيرة خاصة بالمدائح النبوية منها:

محمد سر الوجود وسر الأكوان

إمام أصحاب السجود فما له ثان

محمد خير الورى نبينا الأواه

محمد بدر سرى سبحانه من أنشاه

ومثله ليس يرى أثنى عليه الله [3].

**. محمد بن رجب الجزائري.**

إشتهر بكتابه في **الطب** ومدافعة الوباء الوافد عام 1200هـ وجاء في كتابه ما يلي: « ... الحمد الله وحده لما جاء **الطاعون** في شعبان سنة 1200ه ببلدنا الجزائر إشتغلت بمطالعة كتب عديدة في الطب منها **القانون لإبن سينا والتذكرة للأنطاكي** وألفت هذا الكتاب وسميته « **بالدر المصون في تدبير الوباء والطاعون** » وأدرك الشيخ العهد الإستعماري » وتوفي في القرن 179م[4].

**. سيدي محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزواوي.**

ناشر الطريقة الرحمانية بالجزائر وبلاد السودان ، توفي ببلاد القبائل عام 1208م ودفن بمقبرة **الحامة** التي سميت بإسمه[5].

---

(1) نفسه: ص 215.

(2)الكتاني: فهرس الفهارس والإثبات ، م.س. ص 217.

(3)نفسه: ص 215.

(4) نفسه: تعريف الخلف. م. س. ص 427.

(5) الحفناوي. تعريف الخلف. م. س. ص 450.

### ج) علماء الجزائر في القرن 19م.

بالرغم من محاربة ومضايقة الإستعمار الفرنسي للحركة العلمية دراسات اللغة العربية والإسلامية فإن السند العلمي لم ينقطع ، وأن الدراسات الفقهية واللغوية قد تابعت نشاطها البالغ وتحدت العراقيل والقوانين الإستثنائية المطبقة عليها ، وكانت الزوايا والمساجد هي المراكز الثقافية أنذاك ، وبدأت اللغة العربية تدرس في المدارس الحكومية وأنشأت المدارس الحرة بعد الحرب الكونية الأولى.

## أعلام القرن 19م:

وظهر في هذه الفترة جماعة من أعلام الفقه والأدب والتاريخ نذكر:

**. حمودة المقايسي الجزائري.**

المتوفي عام 1245هـ [1].

**. الجليل الكبابطي.**

الإمام الجليل توفي بالإسكندرية بعد الإحتلال بفترة قليلة.

**. حميدة العمالي.**

مفتي **المالكية** بالجزائر وكان مدرسا ممتازا بالجامع الأعظم وتخرج عليه الكثير من طلبة ذلك العصر ترك مؤلفات عدة منها: كتاب في القضاء ، درس فيه خصائص **القضاء** ، وحلية القاضي وشروطه [2].

**. الشيخ القزادري.**

الذي كان تلميذا للعمالي وإماما بالجامع الأعظم ومدرسا بالمدرسة الثعالبية[3].

**. حسن بن بريهمات.**

عالما جليلا وأديبا فاضلا نافس شيخه « **حميدة العمالي** » في الدراسات الدينية والفقهية ، وقد نبغ وإجتهد في الأدب والشعر ، ويؤكد « **الحفناوي** » بأن **للشيخ حسن** إجتهاد هام في الآداب العربية والعلوم الدينية ، كما له قصيدة في مدح « **أقوم المسالك في أحوال المهالك** » « **لخير الدين باشا** » التونسي عام 1284هـ. ترك صدى واسعا لدى الطبقة المثقفة بالمغرب العربي لأهمية موضوعه في تلك الحقبة التاريخية ولتناوله لمباحث مختلفة منها السياسية والإجتماعية ومن

(1) نفسه. ص 140.
(2) نفسه. ص 150.
(3) نفسه. ص 151.

قصيدته في مدح الكتاب ومؤلفه:

لله درك خير الدين من علم ابدى منار الهدى للناس في الفتن.
نهجت نهجا قويما قل سالكه إلى السياسة كي ينجوا من الفتن.
حق على ملة الإسلام شكركم ورعى تأليفكم بالقلب والأذن.
عليك مني سلام الله ما طلعت شمس وما غرد القمري في فنن.

## د) أعلام الجزائر في القرن 20م:

من الذين إشتهروا وإجتهدوا في الفقه والدراسات العلمية والأدبية:

**. مصطفى بن الخوجة.**

ولد بالجزائر العاصمة عام 1865م ، ودرس بها على شيوخ عصره كالمفتي « **علي بن الحفاف** » والشيخ « **سعيد بن زكري** » ومارس الصحافة بجريدة « **المبشر** » من سنة (1886م **إلى سنة** 1901م) ، وبعدها عين مدرسا بجامع « **السفير** » عام 1895م وأقرأ فيه التفسير والفقه ، وكان مترجما متضلعا في العلوم اللغوية الفقهية وترك بعد رحيله عام 1915م مؤلفات عظيمة منها (**رسالة الإكتراث في حقوق الإناث**) وهي رسالة غريبة في موضوعها وبادرة حسنة في التآليف الإجتماعية وكتابه « **إقامة البراهين العظام** » على نفي التعصب في الإسلام[1].

**. محمد سعيد بن زكري الزواوي.**

إستقر بمدينة الجزائر ، ودرس بالجامع الأعظم وتولى إمامة جامع سيدي رمضان والإفتاء المالكي من مؤلفاته « **رسالة أوضاع الدلائل** » ، توفي عام 1914م[2].

**. الحفناوي أبو القاسم.**

شارك في تحرير الجريدة الرسمية له كتاب « **تعريف الخلف برجال السلف** » توفي عام 1940م .

**. محمد بن أبي شنب.**

كان متخصصا في الدراسات اللغوية والأدبية أول جزائري نال شهادة الدكتوراه في اللغة العربية عام 1922م من جامعة الجزائر إشتهر بدراساته الإستشراقية وبأبحاثة المختلفة والعديدة باللغتين العربية والفرنسية ، وكذا مؤلفاته ومنشوراته الكثيرة[3]. توفي

(1) الحفناوي. م.س. ص 152.
(2) الحفناوي: م.س. ص 151.
(3) نفسه. م.س. ص 154.

عام 1925م ودفن بمقبرة سيدي أمحمد بالجزائر العاصمة .

### 3) أعلام الجزائر في مجال العلم والفكر الإصلاحي.

ومن الذين وضعوا أسس النهضة الحديثة في المجالين «**العلمي والأدبي**» و«**الفكر الإصلاحي الحديث**» نذكر:

**. الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:**

ويعد رائدا في الإصلاح الديني بمعية عبد الحميد بن باديس ورفاقهما في الدعوة والإرشاد والتعليم ، فهو مفكر مجدد وناقد موجه في الدراسات النقدية والشعرية ومحاضر مجتهد لا يمكن لأحد من الباحثين أن يجحد أويفي حق مكانة العلامة الإبراهيمي وفضله على النهضة الحديثة في صفحات يكتبها عنه ، بذل جهودا معتبرة في العمل الإصلاحي أثناء رئاسته لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وترك مؤلفات متعددة أشهرها «**عيون البصائر**» توفي في شهر ماي 1965م ودفن بمقبرة سيدي أمحمد بالحامة بالجزائر العاصمة.

**. الشيخ محمد العربي التبسي:**

إلتحق بمدينة الجزائر العاصمة بعد إدارته لمعهد الشيخ عبد الحميد بن باديس بقسنيطنة تولى رئاسة الجمعية بعد الشيخ الإبراهيمي وأشرف على تسيير الحركة التعليمية بالمدارس الحرة. أقام بالجزائر بعد الثورة وأختطف من طرف جيش الإحتلال وتوفي شهيدا عام 1958م.

كانت الجزائر طيلة قرون مرت بها في العهد الإسلامي تزخر بنشاط سياسي هام وبحركة عمرانية ومعمارية وبحركة علمية وأدبية فعالة وإعتزت بدورها السياسي منذ الفترة العثمانية ، من القرن 10هـ 15م إلى غاية القرن 12هـ 18م وبهذا فالجزائر تستحق بفخر وإعتزاز أن تقام لها ذكريات وأن تشرف بالتنويه وأن يخص تاريخها الحافل بالدرس والتحليل ليستوحي منه أجيالها أمجاد كرامتهم وأصالتهم الحقيقية.

## 4) مؤسسات التعليم والبيئات العلمية بالجزائر

### أ) مؤسسات التعليم:

قام النشاط الثقافي الجزائري في هذه الفترة التاريخية على المهام والنشاطات المنوطة بجماعة الفقهاء في المدن وعلى الدور الفعال المنوط بشيوخ الزوايا بالريف الجزائري. فما هو دور الفقهاء في المدن؟ ونشاط شيوخ الزوايا بالريف؟.

لقد كان فقهاء المدن يؤطرون الحياة الثقافية بما يقومون به من أعمال

تتصل بتلقين العبادات والإشتغال بمهنة التعليم والتربية والقيام ببعض الوظائف القضائية والدينية والمهام والأعمال المرتبطة بها كالقضاء والإفتاء والخطابة والأوقاف. وإهتم الكثير من أهل الحضر بمدن الجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان بتوارث تلك الوظائف الدينية والعلمية والقضائية. في حين إتسع نشاط شيوخ «الزوايا» إلى جانب ميدان التربية والتعليم والتوجيه والإرشاد بمهمة القاضي الأمر الذي جعلها بمثابة سلطة قائمة بذاتها تستمد وجودها من التعاليم بطريقتها وتنفرد بمصادر تمويلها من خلال معاملتها مباشرة مع عامة السكان ونتيجة حلها لبعض الخلافات والنزاعات بين القبائل في المجتمع الجزائري ومساعدتهم بالعون للفقراء والمحتاجين من جهة ولحاجة السكان إلى أعمال وخدمات الزوايا الثقافية منها والروحية نجدها قد توسعت وإنتشرت في نواحي عديدة من الوطن الجزائري .

ففي جهة وهران إلى جانب زوايا «غريس»[1] فقد عرفت إنتشار زاوية الشيخ «محمد السليماني» وزاوية «محمد بن علي بهلول» بمجانة بالشلف ، وزاوية «عين حوت» و«البسباس» و«الطيب بعمي موسى» وزاوية « بن أحمد البدوي» بتلمسان وزاوية «الرياش» و«الجديدات» وزاوية «أولاد سيدي العربي» ببلعباس وزاوية «سيدي محمد بن الشريف» بمازونة وزاوية «اليعقوبية» بسعيدة وزاوية «الشابة» بمطماطة وزاوية «سيدي مجاهر» بمغنية وزاوية «مولاي الطيب» بأولاد سيدي رمضان ببني سناسن و«الثلاثة» ببني سنوس.

أما في الناحية الشرقية وواحات الصحراء فقد إنتشرت فيها زوايا متعددة أشهرها: زاوية «بلحملاوي» بسقان و«الشقفة» بجيجل و«المنعة» بالأوراس و«الهامل» بناحية بوسعادة و«سيدي خالد» و«سيدي عقبة» و«طولقة» و«عين

(1) وبفضل جهود الكثير من عائلات ناحية «غريس» أثرت الزوايا في نشر التعليم والمعرفة التي ذكرها الشيخ الطيب بن المختار الغريسي في كتابه «القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم» بقوله: «إن الأشراف والأعيان بغريس إعتنوا بالدين وتحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم العلوم المتصلة به «لغة ، أدب ، فلك» فأسسوا الزوايا التي واظبوا على تمويلها» ومن العائلات التي توارثت العلم في 18م و19م عائلات «الخروبي» و«المشارفة» و«إبن بروكش» و«مصطفى ابن التهامي ابن عم الأمير وصهره. له كتاب «السيرة الذاتية للأمير» سنة 1849م ، و«الحسين بن علي بن أبي طالب» ابن عم الأمير وصاحب كتاب «تاريخ الأمير عبد القادر» ترجمه «ديلبيش» في المجلة الإفريقية 1867م. ومن عائلة «المختار الحسني» أحمد بن محي الدين أضغر إخوة الأمير عبد القادر ، ترك كتاب «نخبة ما تيسر به النواظر ، وأبهج ما يسطر في الدفاتر وبيان تولية الأمير عبد القادر» ، ومحمد بن الأمير عبد القادر ، قضي طفولته بمقر أسرته بالقيطنة قبل أن يستقر مع والده بدمشق ، وله مؤلفات منها: «تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر» و«عقد الأجياد في الصافنات الجياد» و«نزهة الخاطر في قريض الأمير».
أنظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. م.س. ج7. ص 315.

ماضي »[1].

وأما في جهة منطقة القبائل فقد كان في مقدمة هذه الزوايا الدينية زاوية « سيدي أحمد بن إدريس » وزاوية « سيدي منصور الجنادي » وزاوية « سيدي عبد الرحمان المصباحي اليلولي » والشيخ « الحسين بن أعراب » وزاوية « سيدي محمد بن علي الشريف »[2] و« سيدي محمد بن عبد الرحمان القشتولي » و« أولاد مصباح ».

وبهذه الزوايا والمساجد المنتشرة عبر مدن الوطن ، فقد عرفت الجزائر في أواخر العهد العثماني حياة فكرية تميزت بحالة ثقافية إتصفت بالتقليد والتلقين وبالمحافظة على تراث الجزائر في الفترة الإسلامية عاملة على تأصيله بواسطة التعليم والتربية ، وهذا ما سمح بوجود توازن في توجه الأفراد والجماعة وأصبحت القناعة عند الجميع بصلاح رجل العلم والمرابط بالزواوية والربط في التعليم بين تلقي المعلومات المختلفة والإلتزام بالسلوك الأخلاقي الإسلامي والإعتماد الكلي على الحفظ بالنسبة للمصنفات والمؤلفات في علوم مختلفة كالفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام والتوحيد وعلوم اللغة والمنطق والفلك والحساب ومن أشهر المصنفات نذكر: الأجرومية وألفية بن مالك وقطر الندى ومتن إبن عاشور ورسالة أبي زيد القرواني ومختصر سيدي خليل وابن الحاجب .

## ب) البيئات العلمية.

عرفت الجزائر خلال القرن 19م حياة ثقافية مستوى معارف عصرها ـ محدودة الأثر شكلت معها المدن الجزائرية ـ الجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان ومعسكر ـ بيئات علمية إشتهرت بمكانة شيوخها ومدارسها وتعدد طلبتها في فترة

(1) X. Copolavi,o. Dupont, les confréries religieuses Musulmanes, Alger, A. jourdan 1909.

(2) تعتبر زاوية « علي الشريف » بشلاطة قي منطقة القبائل نموذجا للتعليم العالي بالجزائر أنذاك ، وما المقررات الدراسية بها والموزعة حسب التخصصات والمعارف ، إلا تأكيدا على ذلك وهي:
ـ التفسير والقراءات: « إبن عطية ، والثعالبي ، وإبن الجوزي ، والشاطبية » في القراءات.
ـ الحديث ومصطلحاته: « موطأ مالك ، الصحيحان (البخاري ومسلم) ، متن البيقونية ، تذكرة القرطبي ».
ـ الفقه وأصوله: « نتن وشروح رسالة أبي زيد ، متن وشروح وحواشي مختصر الشيخ خليل المعروفة بسيدي خليل ، ثم متن ابن عاشر ، وإبن الحاجب ، ورسالة السنوسي ».
ـ علم الكلام: « المقاصد وشرحها للسعد ، العقائد النفيسة ، والإبراهيمية للسنوسي ».
ـ التصوف والتوحيد: « مصنفات ابن عطاء ، والقشيري ، متن الجزرية ، والإحياء للغزالي ».
ـ علوم اللغة: « متن الكافي في العروض ، الجوهر المكنون ، الأجرومية ، المغني ، قطر الندى لإبن الهاشم ، ألفية ابن مالك بشرح الماكودي وإبن عقيل ، والأشموني ».
ـ الحساب والفلك والمنطق: « متن السنوسي ، متن إيساغوحي ، متن السلم المرونق ، الدرة ».
أنظر: ناصر الدين سعيدوني. مؤسسة الزوايا في الجزائر. م.س. ص 18.

حكم الداي «**محمد عثمان باشا**» المتوفي سنة 1791م وولاته بالأقاليم والمقاطعات، «كصالح باي» بقسنطينة، و«محمد الكبير» بمعسكر، و«محمد الذباح» بالتيطري، مع الملاحظة أن الجزائر قد عرفت خلال القرن 18م نشاطا علميا ونهضة أدبية مهدت للقرن 19م، وبذلك أصبحت الجزائر مقصد الكثير من طلبة العلم والمعرفة [1]، ووصف «زاكور الفاسي» علماء الجزائر الذين أخذ عنهم العلم والمعرفة قوله: »...غرر أعلام ينجلي بهم الظلام، وشموس أئمة تنفرج بهم كل غمة وتفتخر بهم أخبار هذه الأمة من رجال كجبال وأحبار كالأقمار... فإهتديت بأنوارهم السنية إلى قطف ماراق من أنوارهم الجنيه وإرتعت في رياض آدابهم، فتمتعت وأنهلت من حياض علومهم فتضلعت وكرعت في أنهار بلاغتهم حتى رويت»[2].

وعرفت الجزائر إنتاجا أدبيا مزدهرا ومتطورا في مختلف المواضيع على يد شعراء وأدباء جزائريين في القرن 18م، الذين أحيوا مدرسة الموشحات الأندلسية لفظا وصورة [3].

ومع بداية القرن 19م الذي شهد إضطرابات ومشاكل وإنعدام الأمن، وإبتعاد الحكام عن شؤون العلم والثقافة، تراجعا في الحياة الثقافية وأصبح نشاطها يعتمد على جهود العلماء المدرسين وأصحاب التأليف والكتابة [4] والحياة الخاصة في تلقينهم للعلم، أو إتصالهم بعلماء المشرق العربي[5].

---

(1) أمثال: علي بن عبد الواحد الأنصاري، وإبن زاكور الفاسي المتوفي عام 1708م.

(2) محمد بن زاكور الفاسي: نشر أزاهير البستان فيمن أجاز بالجزائر وتطوان. الجزائر. 1902م.

(3)منهم «إبن ميمون» و«إبن الشاهد» و«إبن عمار» و«ابن علي» الذي قال عنه أبو القاسم سعد الله: بأنه فريد عصره في المشرق والمغرب، لما بلغه في قوة النفس، وإتساع العارضة، والحبكة الشعرية، وطواعية المعاني للألفاظ ومواتاة الصور.

أنظر: أبو القاسم سعد الله: مختارات مجهولة من الشعر العربي لإبن عمار. بيروت. دار الغرب الإسلامي، 1992م. ص 16.

(4) كان في طليعتهم شيخ مؤرخي الجزائر العثمانية «أبوراس الناصري» الذي كتب عن سيرته في «فتح الإله»، صورة معبرة عن الجو الثقافي السائد في الجزائر خلال القرن 19م.

(5) فقد كتب » أبوراس الناصري» عن نفسه قائلا: »...لما قدمت معسكر وسمعت بالشيخ المشرفي يدرس بعواجة، وبعد درسي بها شمرت للتدريس فيها وأكثرت تدريس الألفية بشرح البهجة المرضية. وفي عام 1204ه ـ 1789م ذهبت إلى الحج فقامت لي علماء المشرق على ساق، وفي تلك الحجة قرأت على الشيخ مرتضي، ثم رحلت إلى غزة...ولقيت علماءها وأمراءها، فضيفوني وأكرموني، وتناظرنا في مسائل من العلم مختلفات برهة من الزمن، فإعترفوا لي بالفضل والعلم والحفظ، ثم رجعت فوليت الفتوى ثم القضاء والخطابة، ثم وفدت على السلطان «مولاي سليمان» فأهديت له نسخة من الأمر مع العقيقة فاجازني جائزة البينة، وأتحفني تحفة مرضية، وإشتهرت في مدينة فاس ولقبوني بالحافظ، ثم مع ما دهمنا من الطاعون... فإتصلت علينا مراض النكبات والبليات في الخوف والجوع، والروح الذي الفؤاد

## ج) تأثير عملية الإحتلال الفرنسي على الحياة الثقافية في الجزائر.

بعد عملية الغزو الفرنسي على الجزائر عام 1830م وفرض الإحتلال عليها تراجعت الحياة الثقافية وفقدت المدن الجزائرية مكانتها الثقافية وتعطلت مدارسها ومعاهدها وتفرق شيوخها ومعلميها وطلابها ، الذين غادروا البلاد بعد أن إشتدت خطورة السياسة الفرنسية المعادية للثقافة العربية والإسلامية ، وكان في مقدمة المغادرين « حمدان بن عثمان خوجة »[1] و« قدور بن محمد بن رويلة » [2] و« أحمد الشريف الزهار »[3] والمفتي الحنفي « محمد بن محمد العنابي »[4] والمفتي المالكي « مصطفى بن الكبابطي »[5] . وإلى جانب مدينة الجزائر التي أضرت بها ظروف الإحتلال ففي الناحية الشرقية من الوطن الجزئري فقد بقيت مدينة قسنطينة طيلة الفترة العثمانية تفرض وتبسط مكانتها الثقافية خاصة في عهد « صالح باي »[6] الذي إعتنى بالعلماء ومدارسهم بعد أن وجد المساعدة والعون من عائلات قسنطينة ، الأمر الذي ساعد على ظهور علماء بالإقليم خلال القرن 19م نذكر منهم على سبيل المثال:

الشيخ « محمد بن سالم » والشيخ « أحمد العباس »[7] والشيخ « محمد الشاذلي القسنطيني »[8] ، والشيخ « أحمد بن المبارك بن العطار » [1] ، والشيخ

---

مودوع ».أنظر: أبوراس الناصري. م.س. ص 16.

(1)مؤلف كتاب « المرآة » تصدى للسياسة الإستعمارية الفرنسية ، وإضطر إلى الهجرة خارج الوطن نحو إستانبول ، التي توفي بها عام 1845م.

(2) ألف كتاب « وشائح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب » إلتحق بجيش الأمير عبد القادر ووقع أسيرا ، ثم رحل إلى المشرق بعد إطلاق سراحه وإستقر بلبنان التي توفي بها عم 1855م.

(3) له معرفة واسعة بالمسائل الفقهية وتسجيل أحداث عصره له حمية دينية دفعته للإنضمام إلى الأمير عبد القادر ، وخدمته بإخلاص بها وأمان ، وبعد نهاية مقاومة الأمير إنتقل إلى المغرب الأقصى ، ثم عاد إلى الجزائر وبقي بها حتى وافته المنية عام 1872م.

(4) عرف بسعة علمه ومعرفته بمسائل الدين ، له كتاب « السعي المحمود في نظام الجنود » عالج فيه أسباب النصر وعوامل القوة في المسائل الحربية والسياسية ، تعرض للنفي لوقوفه في وجه السياسة الفرنسية ، مكث في الإسكندرية إلى يوم وفاته عام 1850م.

(5) إشتهر بتدريسه بالجامع الأعظم بالجزائر وولاه الداي « حسين باشا » منصب القضاء المالكي عام 1243ه ، وبعد الإحتلال وقف مدافعا عن أحوال الشخصية للمسلمين الجزائريين ، وحاول إقناع اللجنة الإفريقية بذلك عندما مثل أمامها عام 1833م فإنتقمت منه فرنسا ، ونفي ليقيم بالإسكندرية حتى وفاته. وأنظر أيضا: ناصر الدين سعيدوني: التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي ، تراجم مؤرخين وجغرافيين ورحالة ، بيروت دار الغرب الإسلامي. 1999م

(6) رفع من مكانة العلماء وإعتنى بالمؤسسات التعليمية وخصها بأوقاف متعددة.

(7) تولى القضاء المالكي والخطابة في مسجد « رحبة الصوف » وكان مدرس العلوم العربية والحديث والقراءات توفي عام 1835م.

(8) تعامل مع « المستعرب بواسونية » ، تولى الإدارة الفرنسية بقسنطينة مشرفا على المكتب العربي ، وتولى

« محمد الصالح العنتري »[2] ، والشيخ « محمد العنابي » [3] ، والشيخ « محمد البابوري » ، والشيخ « أحمد بن الفكون » ، بالإضافة إلى من حل بقسنيطنة في تلك الفترة من ذوي العلم والمعرفة كالمترجم « نيقولا Nikola » اليوناني[4].

أما الناحية الغربية فقد كانت مدينة « معسكر »[5] مكان علم وفقه ، وموطن أدباء ، وساعدها موقعها « بغريس » تحويل مركز البايليك الغرب 1701م 1792م ، من « مازونة » إلى « معسكر » من طرف الباي مصطفى بوشلاغم ، ودوره في توجيه العلماء نحوها وتأسيس المدارس والجوامع والمعاهد بها ، كما كان للباي « محمد الكبير » دور فعال أثناء إقامته بمعسكر 1779م ـ 1792م في ذلك[6].

فبنى جامع معسكر الكبير[7] الذي تحول فيما بعد إلى مدرسة علم ومعرفة ، جلب لها المدرسيين والمخطوطات من شتى الأقاليم ، نال بذلك « محمد الكبير »[8] رضاء وثناء العامة والعلماء والكتاب والشعراء ، نذكر منهم الشاعر: « المجيد أحمد بن علال القرومي » الذي أشاد بمآثر وخصائل الباي في قصيدة مطلعها:

ألق العصا وفّك رحال ركائبي بالمسجد المنشأ بأم العسكر
المحكم التشييد في شرفاته فتراه ينشد كالرياض الممطر
عجبا له من مسجد في الأرض قد حاكي السماء تطولا في المعجز

القضاء المالكي بها لمدة 20 سنة ، وأوكلت له إدارة المدرسة الرسمية ، « الكتانية » التي أنشئت عام 1850م ، له رسائل وأشعار عديدة ، منها الخاصة بالأمير عبد القادر الذي تربطه به علاقة خاصة أثنا الفترة 1849م ـ 1850م بفرنسا ، توفي عام 1877م.

(1) مدرس بالجامع الأعظم بقسنطينة ومؤلف كتاب تاريخ حاضرة قسنطينة عام 1852م ، توفي عام 1870م.

(2) له كتاب « تاريخ باي قسنطينة » ، و« فريدة مؤنسة » ، و » تقاييد سنين القحط » و« المسغبة ببلد قسنطينة » ، توفي سنة 1877م.

(3) له كتاب « كشف البضائع » توفي عام 1848م.

(4) المعروف « بأحمد الأنبيري » الذي عمل في الإدارة الفرنسية بالإقليم منذ عام 1847م ، ووضع تاريخا للمدينة عنوانه « علاج السفينة في بحر قسنطينة ».

أنظر: أبو القاسم سعد الله. القاضي الأديب « الشاذلي القسنطيني » دراسة ونصوص ، ط2. الجزائر ، م.و.ل. 1985م.

(5) تشكل البيئة الخاصة للأمير عبد القادر وعائلته.

(6) عمل على بناء المساجد والمدارس وتشييد المرافق الضرورية للمنطقة التي كان من مآثره بناء المسجد العتيق سنة 1761م.

(7)المعروف بإسم جامع محمد الكبير أو جامع عين البيضاء.

(8) عندما كان في معسكر قام بتبجيل العلماء وحثهم على الكتابة والتأليف ، ويقوم بإستشارتهم في مختلف شؤون الحياة التي تفيد البلاد.

تحويه مدرسة غدت أثارها تحييه بالعلم الشريف الأشعري [1]

وهكذا أصبحت مدينة معسكر بفضل أعمال ومجهودات الباي «محمد الكبير» حاضرة علم ومعرفة مثلها مثل مدينة الجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان بقصدها العلماء والطلبة فكانت مقصد وإستقرار شخصيات وملوك[2] وشعراء[3] ومؤرخين[4] ومن الأدباء والكتاب الذين إشتهرت بهم مدينة معسكر آنذاك نذكر:

**. عبد القادر بن عبد الله المشريف:**

مؤلف «بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر» المتوفي عام 1192هـ 1778م.

**. محمد بن رقية الجديدي التلمساني:**

واضع «الزهرة النادرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة» ، توفي بعد سنة 1779م.

**. أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي:**

مؤلف «الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني» ، وواضع «عقد المحاسن» ، و«شرح الحقيقة» وملخص كتاب «الأغاني» ، توفي سنة 1211هـ 1796م.

**. أحمد بن محمد بن هطال التلمساني:**

صاحب «**تقييد**» رحلة محمد الكبير إلى شلالة والأغواط ، توفي عام 1219هـ 1804م.

**. حسين بن أحمد الخوجة بن الشريف:**

مصنف «دار الأعيان في أخبار مدينة وهران» ، توفي بعد عام 1220هـ 1805م.

**. محمد بن أحمد بن أبي راس الناصري:**

شيخ مؤرخي الجزائر في الفترة العثمانية[5] صاحب مصنف «**زهوة الشماريخ في علم التاريخ**» و«**درء الشقاوة في حروب درقاوة**» ، توفي عام 1822م.

**. مسلم بن عبد القادر حميدي:**

(1) أحمد بن سحنون الراشدي: «الثغر الجماعي في ابتسام الثغر الوهراني» تقديم ونشر الشيخ «المهدي البوعبدلي» قسنطينة ، مطبعة البعث ، 1973م. ص 147.

(2) مولاي عبد الرحمان بن السلطان محمد بن عبد الله مولاي يزيد بن عبد الرحمان ، ابن خدة المغربي.

(3) قصدها الشاعر «الحاج أحمد بن علال القرومي».

(4) المؤرخ المغربي «أبو القاسم الزياني» صاحب الترجمة الكبرى وقد إستقر بالمدينة ثم هاجر إلى الشرق عام 1209هـ.

(5) ينتسب إليه حوالي الخمسين تصنيفا ، ضاع معظمها ، وبقي القليل منها: «عجائب الأسفار ولطائف الأخبار» و«فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته».

صاحب « خاتمة أنيس السهران ودليل الحيران » ، توفي سنة 1248هـ 1832م.

**. محمد بن يوسف الزياني:**

مؤلف « دليل الحيران في أنيس السهران في أخبار مدينة وهران » ، توفي سنة 1277هـ 1861م.

**. إسماعيل بن عودة المزاري:**

ينسب إليه « طلوع السعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود » ، توفي سنة 1304هـ 1897م .

**. عبد الرحمان الشقراني:**

صاحب القول « الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط » ، توفي بعد سنة 1301هـ 1883م .

**. أحمد ولد القاضي:**

واضع « تقاييد عن الدوائر والزمالة » ، توفي أواخر 19م .

## الخاتمة:

ومن خلال تعرضنا للحياة الثقافية في الجزائر خلال القرن 19م وإستكمالا لإبراز ملامح هذه الثقافة ، أن نعرف القارئ ببيئة الأمير عبد القادر والوسط الذي نشأ وتكون وعاش فيه هذا الوسط المتمثل في منطقة « غريس » بإعتبارها موطن الفقهاء والمصلحين ، ومقر الزوايا والمزارات وبفضل دور وجهود عائلات منطقة غريس أثرت الزوايا في الحياة الثقافية في الجزائر ، وساهمت في نشر العلم والمعرفة بناحية الغرب الجزائري من جهة ولما سبق ذكره بالنسبة لواقع الثقافة في الجزائر مع نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م ، يظهر للقارئ أن الجزائر كانت من حيث وجود المؤسسات التعليمية ، وبرامج الدراسة ، والإنتاج العلمي والثقافي في مختلف العلوم والمعارف ، تضاهي وتماثل ما عليه البلاد العربية في المغرب والمشرق العربيين آنذاك .

وإذا كانت مدن الجزائر وقسنطينة وتلمسان ومعسكر ومازونة قد تميزت بنشاطها العلمي وإنتاجها الادبي عن طريق الفقهاء والأدباء وشيوخ الزوايا ، وغلبت عليه المسائل الدينية والمواضيع التاريخية هو ما جعل البنية الثقافية تبقى محافظة على طابعها العريق ، وسمح لها بتقديم الخدمات الأساسية فيما يخص التعليم ، القضاء ، والعبادة ، إلى أن تعرضت هذه البيئة الثقافية للتدمير والزوال إبتداء من تاريخ الغزو الفرنسي للجزائر و سياسته الإستعمارية التي عملت إلى تحطيم المقومات والثوابت الوطنية المتمثلة في اللغة العربية والدين الإسلامي وكذا التاريخ

والحضارة للجزائريين ، وهو ما غير معطيات ومجريات تاريخ البلاد في أواخر القرن 19م مؤثرا في مستقبلها وما يتصل بقيمه الحضارية وبذاكرته التاريخية المجيدة .

**البيبلوغرافية:**


- Archives nationales, d'outre mer à Aix - en - provence, f 80 - 1674, Administration des biens arabes, blida, 1842 .
- De neveu, ordres relegieux chez les musulmans d'Algerie, 3 ed, Alger, 1913.
- M. emerit, l'Algerie à l' époque d'abdelkader, collection de d'ocuments inédits, paris, larousse, 1951.
- X. Copolani,o. Dupont, les confréries religieuses Musulmanes, Alger, A. jourdan 1909.

ـ أبو القاسم سعد الله:
ـ القاضي الأديب «الشاذلي القسنطيني» دراسة ونصوص ، ط2. الجزائر ، م.و.ل. 1985م.
ـ تاريخ الجزائر الثقافي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1998م.
ـ مختارات مجهولة من الشعر العربي لإبن عمار. بيروت. دار الغرب الإسلامي ، 1992م.
ـ أحمد بن سحنون الراشدي: «الثغر الجماعي في إبتسام الثغر الوهراني» تقديم ونشر الشيخ «المهدي البوعبدلي» قسنطينة ، مطبعة البعث ، 1973م.
ـ الحفناوي: تعريف الخلف.
ـ الكتاني: فهرس الفهارس والإثبات ، .
ـ محمد بن زاكور الفاسي: نشر أزاهير البستان فيمن أجاز بالجزائر وتطوان. الجزائر. 1902م.
ـ مسلم بن عبد القادر الوهراني: خاتمة أنيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بونار ، الجزائر. ش.و.ن.ت. 1974م.
ـ أبو العباس أحمد المقري الملقب بشهاب الدين المقري، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان 1968
ـ ناصر الدين سعيدوني:
ـ التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي ، تراجم مؤرخين وجغرافيين ورحالة ، بيروت دار الغرب الإسلامي. 1999م
ـ الداي حسين باشا ، ضمن معجم مشاهير المغاربة.
ـ مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية ، نموذج بلاد القبائل بحث قدم في المؤتمر العالمي للتعليم والتربية في العالم العثماني ، إستانبول في12 و15 أفريل 1999م.